ربع ميـــة . . .

للدكتور طه حسين

يادار ميـة بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد
وقفت فيها أصيلا لا أسائلها عيت جوابا وما بالربع من أحد

ولم يكن ربع مية بالعلياء فالسند ، وانما كان فى صحن الازهر ، وعند القبلتين القديمة والجديدة ، حيث كانت الحركة العاملة فى الليل والنهار ، وحيث كان ذلك الدوى الغريب الذى لم يكن ينقطع الا فى اوقات الصلاة العامة . والذى كثيرا ما فكرت فيه وسألت نفسى عن هذه الأجزاء التى لاتحصى ، والذرات التى لاتعد ، والتى كانت تؤلف جوهره وتكون مزاجه ، وتجعل منه وحدة لايظهر فيها الاختلاف ، ولا يحس فيها التباين ، فاذا حللتها رأيت اختلافا لاحد له ، وتباينا ليس له آخر : رأيت أصوات قوم يتحدثون فى متاع الدنيا ولهوها ، واصوات قوم آخرين يتحدثون فى جد الحياة وآلامها ، وقوما يذكرون الله ، وقوما يدرسون العلم ، وقوما يتلون القرآن ، وقوما يقرأون مايخطر لهم وما لايخطر لك على بال ، وقوما يخوضون فيما تظن وفيما لاتظن من فنون الحديث ، ومن هذه الاصوات كلها يتعقد صوت واحد قوى ضخم عميق عنيف متحد ملأ فضاء الازهر منذ تدخله الى حين تخرج منه ، ويملأ فضاء الازهر من أى باب ولجته ، الى اى باب تجاوزته ، ويملأ فضاء الازهر فى جميع ارجائه وأنحائه على كثرة مافيها من الأنحناء والالتواء والانعطاف

نعم فى هذا الربع الذى لم يكن يخلو فى نهار ولا فى ليل ، ولم يكن يهدأ فى شتاء ولا فى صيف ، ولم يكن يشعر بالحاجة الى الحياة لانه كان حياة كله . وكان حياة كاشد ما تكون الحياة قوة وحركة وانتاجا . فى هذا الربع وقفت كما وقف النابغة فى ربع مية ، ولكنى لم أقف أصيلا وإنما وقفت بعد صلاة العتمة فتهمت هذا النحو من شعر القدماء ، أو قل أحسست هذا النحو من شعر القدماء ، فما أكثر مانفهم الشعر القديم والحديث دون أن نحسه كما يحسه قائلوه . ودون أن نتأثر به كما يتاثر به الشعراء

وكان الأزهر كربع مية : خلا بعد عمران ، وسكن بعد حركة ، وأعيا عن جواب السؤال حين وجه اليه السؤال ، وكان الازهر كربع مية قد طال عليه الأمد وبعد به العهد . طال عليه الأمد أكثر مما طال على ربع مية فما أظن أن ذلك الأمد الذى ذكره النابغة والذى طال على ربع مية كان طويلا مسرفا فى الطول يكاد يبلغ ألف سنة كهذا الأمد الذى أذكره حين أتحدث عن الازهر والذى ذكرته حين تحدثت الى الأزهر منذ أسبوعين . وكان الأمد بين الأزهر وبينى قد طال . فما أذكر أنى دخلته منذ بضع عشرة سنة ، وما أذكر أنى طوفت فيـــه منذ أكثر من عشرين عاما ، ولكنى حملت فى نفسى دائما للازهر صورة حية قوية شديدة الحركة عظيمة النشاط رائعة الدوى عسيرة التحليل ، وكنت أسعى إلى الأزهر منذ أسبوعين وإن قلبى ليخفق سعادة واغتباطا وحنينا إلى هذه الصورة التى صحبتنى ربع قرن وطوفت معى فى أقطار الأرض واستقبلت معى ألوان الخطوب لم تضعف ولم تفتر ولم تتضاءل . والتى كنت أسعى بها إلى أصلها الأصيل فى صحن الازهر وعند القبلتين لتستمد قوة إلى قوتها وحياة إلى حياتها ، فلما بلغت الربع — وليتنى لم أبلغه — نظرت فاذا الصورة أقوى من الأصل ، واذا الأزهر الذى أحمله فى قلبى أشد حركة وأعظم نشاطا وأقوى حياة من الازهر القائم هناك فى حى من أحياء القاهرة .

قال أصحابى وكلهم مثلى من أبناء الازهر الذين بعد عهدهم به وطال فراقهم له : وما يمنعنا أن نختم رمضان بزيارة قصيرة للازهر نحيى بها العهد القديم ونذكر بها أيام الشباب . قلت وإنى فى ذلك لراغب ، وإنى إلى ذلك لمشوق . ومضينا الى الازهر ونحن نقدر أن سنجد فيه تلك الصور التى ألفناها ، وأن سنسمع فيه ذلك الدوى الذى عرفناه ، وأن سنختلط به اختلاطا ، ونمتزج به امتزاجا ، وقفنا فيه كما كنا نفعل أيام الشباب وقفات فيها الجد الخصب ، وفيها هزل يشوبه الحب والعطف . تتنقل بين هذه الحلقات المنبثة فى أرجائه نسمع لهذا الشيخ وهو يقرأ الحديث أو التفسير أو يقص قصص الوعاظ

نظرة ! وهيهات لابن (الدلتا) القديمة أن يفهم معنى الوادى إلا فى أعالى الصعيد ! فهنالك تتقارب السلسلتان بما وراءهما من موات وجدب ، وينساب بينهما النهر العظيم بما يحمل من حياة وخصب ، ويشعر المصرى الذى يرى هذا المنظر أول مرة فيجد واديه كله فى عينه وفى قلبه ، بنوع من الغيطة لم يحسه من قبل ، ويستغرق فى نشوة من الذكريات والامانى لايخرجه منها الا وقوف القطار على محطة الأقصر . . .

احمد حسن الزيات

فيعجبنا صوته والقاؤه وفهمه وإفهامه فنعجب به ونبسم له . وتتجاوزه الى ذلك الشيخ فيضحكنا صوته أو إلقاؤه أو لازمة من لوازمه أو بعض مايدفع اليه من الخطأ فى الفهم أو السخف فى الافهام فنتصرف عنه ضاحكين متفكهين ، حتى اذا قضينا من هذا كله أربا خرجنا وقد ذكرنا أنفسنا وسعدنا بلقاء تلك الأيام العذاب .

كنا نقدر هذا كله ، فلما دخلنا الازهر لم نر الا وحشة ولم نحس الا صمتاً ، لم نعرف شيئا ولا أحداً ، ولم يعرفنا شيء ولا أحد . وإنما كنا أشبه شيء بالأشباح أو الاطياف تمضى فى مكان خال موحش لاحياة فيه ولاعمران ، وأشهد لقد لقينا خدم الازهر باسمين ثنا محتفين بنا ، يسعون بين أيدينا ومن حولنا ، كأنما نحن جماعة من السائحين الذين لا علم لهم بالازهر ولا معرفة لهم بخفاياه ، فهم يهدوننا ويدلوننا ويرفقون بنا فى الحديث . ويحكم ! فانا أعلم منكم بالازهر وأعرف بمعالمه ، وإنا لم نأت لنلقى منكم هذا الرفق ، وإنا لنعضل أن تلقونا بما كان يلقانا به أسلافكم من ذلك العنف الذى كانت تحبه نفوسنا وان أظهرنا منه النفور . اين الجلاوى واعوان الجلاوى ؟ اين تلك العصى التى كانوا يهزونها فتسمع لها اصوات خفيفة ولكنها مخيفة ؟ اين الغراب وايام الغراب ؟ اين رضوان وجنود رضوان ؟ اين الجندى واعوان الجندى ؟ اين هؤلاء جميعا وما كان يحيط بهؤلاء جميعا من جلال كنا نزدريه وكنا نضيق به ، وهانحن اؤلاء نذكره الآن فنذهب نفوسنا فى اثره حسرات . ولست ادرى من هذا الذى عرفنا فاسرع بأسمائنا الى رجل كريم من أصحاب الفضيلة المفتشين . وانى لأطوف مع صاحبى فى الازهر يتحدث الى واتحدث اليه بهذا الصوت الهادىء الخافت الذى نصطنعه اذا خلا احدنا الى صاحبه . كأنما نحن فى دار من الدور او فى بيعة من البيع التى يحسن فيها الهمس لا فى الازهر الذى لم يكن يحب الا الجهر ورفع الصوت ، وما راعنا الا صاحب الفضيلة وقد اقبل علينا طلق الوجه باسم الثغر مبسوط الاسارير يحيينا تحية الرجل الكريم ، ويدعونا الى ضيافته ويلح علينا فى ان نصعد معه الى حيث يتلى القرآن ويشرب الشاى ..

وكنا نود لو استطعنا ان نخلو الى هذه العمد القائمة لنجدد عهدنا بها ، ولنبثها ذكرى تلك الايام ، ولنسألها عما لم يهمنا الحوادث واختلف عليها من الخطوب منذ فارقناها ، ونظفر منها بهذا الصمت الذى هو افصح من الكلام وابلغ منه اثرا فى النفوس ، ولكن الشيخ دعا فلم يكن بد من ان نستجيب ، فمضينا مع الشيخ الى حيث اراد ، وصعدنا معه الى غرفة من تلك الغرفات التى كنا نذكرها ايام الصبا فتملأ قلوبنا لذكرها مهابة واجلالا ورهبة واكبارا . فى تلك الغرف كان يستقر شيخ الازهر ومفتى الديار . وفى تلك الغرف كانت تدبر امور الازهر وتصرف شؤون العلماء والطلاب ، وحول تلك الغرف كانت تتطاير طائفة من الاحاديث والاساطير عن حياة الشيوخ واقوالهم وأعمالهم . وكانت هذه الأحاديث تصل الينا فنعجب بها ونبسم لها ونلتمس فيها العبرة والعظة والفكاهة . وكنا نتنقل بهذه الأحاديث الى بلادنا فى الريف فنقصها على آبائنا واخواننا فيعجبون بها ويكبرون أصحابها ويتخذونها ذخراً لما يعقدون من مجالسهم اذا أشرق الصبح أو أقبل المساء .

صعدنا مع الشيخ الى تلك الغرفات ونحن نسأله عن الأزهر ما خطبه ، وعن هذا الصمت ما مصدره . والشيخ صامت كالأزهر لا يستطيع رجع الجواب . ثم انتهينا مع الشيخ الى طائفة من أصحابه كرام مثله لقونا لقاء حسنا ، وحيونا تحية حسنة ، كما لقينا الشيخ وكما حيانا ، ونسألهم عن الأزهر ما خطبه ؟ وعن هذا الصمت ما مصدره ؟ فاذا هم صامتون كالأزهر ، واذا هم صامتون كالشيخ ، واذا هم لا يستطيعون رجع الجواب .

ثم تدور علينا أكواب الشاى ، ثم تتلى علينا آيات الله فى صوت عذب ولهجة حلوة وقراءة صحيحة مستقيمة نقية تصل الى أعماق القلوب . ولكن من القارىء ؟ من أين جاء ؟ ما شكله ؟ وما زيه ؟ أنه رجل مطربش قد اتخذ زيا غير زى الأزهر ، لأنه ليس من أهل الأزهر وإنما هو من عمال العنابر . تبارك الله ! رجل من غير الأزهريين يتلو القرآن بين الازهريين ! هذا خبر ، هذا خبر كثير ولكنه غريب لم نكن نقدر أن نلقاه فى أيامنا تلك . وكنا نحب أن نلقاه الآن والأزهر معمور يموج بالناس وترتفع فيه أصوات الشيوخ بقراءة القرآن . ولكن الأزهر ساكن صامت ، وهذه الطائفة الكريمة من العلماء الواعظين قد استمعوا وأنصتوا لتلاوة القرآن الكريم تخرج من رأس عليه طربوش . هذا خير ما فى ذلك شك . ولكن هذه الصورة مازالت غريبة فى أنفسنا ، وما زال موقعها من قلوبنا شاذا قلقا ، ومع ذلك فقد يقال إن الشيوخ محافظون ، واننا نحن من أصحاب التجديد .

ثم انصرفنا محزونين مستيئسين ، جئنا نزور الأزهر فلم نر الأزهر ، وانما رأينا اطلاله ولم نستطع أن نطيل عندها الوقف . قلت لأصحابى : ولكن ما هذا الصمت وكيف انتهى الأزهر اليه ؟ وأيكم كان يظن أن ذلك الصوت العظيم يقضى عليه فى يوم من الأيام أو فى

(البقيـــة على صفحة ٤١)